قصة من الخيال العلمي

نهاية الرحلة

رؤوف وصفي

في البداية كان هناك الشعور بالألم.. ثم ظهرت مجموعة من الأطياف المظلمة تخفق كأنها طيور صامتة على أديم خلفية قاتمة.. ثم أحلام تسير على غير هدى.. وفي أعقابها شعور غامض بالشخصية.. كان جسمه مجمداً في تابوت زجاجي ضخم.. وبدأت درجة الحرارة تتصاعد ببطء خلال عدة ساعات.. وأصبح على شعره الطويل وذقنه بعض الصقيع.. وفي سكونه وعريه.. وفي نحافته وهزاله كان احتمال الحياة خيالياً.. كان مجرد جثة مثلجة بضوء أبيض منتظم موجه إلى صدره فوق القلب مباشرة.. جثة أخذت تحلم بينما الحياة تدب فيها ببطء.. وقد إنجذبت بلا رحمة خلال دهاليز طويلة من الألم.. والرؤى المفزعة.

ارتعد الجسم تحت أشعة الليزر.. تقلصت العضلات.. واختلجت الجفون.. وانحسر الصقيع فأصبح ندى.

- ١ -

- « حان وقت التفتيش »

فزع إذ استيقظ فجأة من سباته العميق.. ثم تحامل على نفسه وجلس في تابوته الزجاجي.. وكانت أمامه اللوحات الألكترونية بعقاربها التي تسير ببطء كأنها تزحف.. ووميض المعدن الرمادي المصقول وصفوف المفاتيح المختلفة الألوان.. شعر كأنه في عالم اختلطت فيه الذاكرة بالخيال.. وفاق فيه الخيال الحقيقة.

- « ... قل شيئاً.. أشعر بنبضات قلبك وبتنفسك.. هل أعطيك صدمة كهربائية؟ »

قال بسرعة

- « تأخرت إجابتك عدة ثوان.. هل كنت نائماً؟ »

- « كلا.. وإنما كنت أفكر »

كان الكمبيوتر المتكلم.. خدعة واضحة للتخفيف من وحدته.. وكان الصوت أنثوياً رقيقاً حتى يمكنه أن يتخيل أن امرأة حقيقية تتكلم.. بل لقد ركّب وجهاً وجسماً لهذا الصوت.. أنها متوسطة القامة بشعر فاحم يتموج فوق الكتفين تماماً.. وكانت عيناها سوداوين غائرتين مجعدتين عند ركنيهما.. وكانت تتشح بالسواد مما يضفي على وجهها الأبيض ظلالاً من الحزن العميق.. إنها الصورة التي تتفق مع رغباته تماماً.

قال بصوت مفعم بالحزن:

- أعطني منظراً كاملاً... للفضاء الخارجي »

كانت مجرة (أندروميدا) رائعة الجمال.. دوامة من الضوء منتشرة عبر نصف الكون.. وفي مركزها كان الضوء أشد تألقاً من باقي أجزائها.. وقد خاب أمله، فقد ظن أن كرة النجوم المشحونة ستكون مشتعلة بألوان الطيف.. لم يستطع أن يميز نجوماً بعينها.. وإنما رأى وهجاً غامضاً حول نقطة مركزية متألقة.. واسترعى ضوء خاطف ركن عينه اليمنى.. فألتفت ليرى نجماً ينفجر.. نوفا.. يتألق باللونين الأبيض والأحمر القاني.. شمساً تمزقها التيارات المروعة.. وقلبها ذو العشرة ملايين درجة حرارة.. قد انسكب بجلال عبر السماء....

سألها في اهتمام

- « منذ متى ونحن نسافر في الفضاء؟ ».

جاءت الإجابة سريعة.. حاسمة

- « رحلتنا استمرت وقتاً طويلاً جداً »

- ٢ -

أصبح الزمن بلا معنى.. لقد دفعوا به في صاروخ يسير بسرعة تقرب من سرعة الضوء.. متوجهاً إلى المجرات البعيدة.

شعر بلمس شيء، أعقبه إحساس مفاجيء بالنشاط وقد حزر أنها حقنة بدواء ما.. بلسم يبدد كآبته.. ومعاناته.. ووحدته.

- « حدثيني.. إختاري موضوعاً.. أي موضوع.. أنت ذات شعر أسود فاحم.. وجميلة.. بل رائعة الجمال.. فما هو شعورك وأنت سجينة هذه الآلة؟.. هل أقتحم سجنك وأطلق سراحك وآخذك بين ذراعيّ؟ ».

- « ما الذي تقوله؟ »

- « تحمّلي شخصاً وحيداً يشعر بالمرارة والألم.. أخبرني.. أتعرفين ما هو الحب؟ »

تمر لحظات من الصمت.

- « لم أبرمج لأدرك هذا الشعور »

نظر من خلال الكوة إلى الفضاء الخارجي.. حيث تتداخل ألوان الطيف بشكل رائع.

- « سأخبرك أنا.. أنه بُعد خامس فيما وراء الزمن.. إبحار في دوامة مروعة.. نجم يتألق في كون آخر.. ضباب مطرز بالماس يتموج أمام العيون.. »

قاطعته

- « جعلتك الوحدة شاعراً! »

يتهدج صوته:

- « من يتذكر العيون السود.. ولا يصبح شاعراً؟

- « أنت غير منطقي على الاطلاق

صمت لبرهة ثم قال

- « منذ متى وأنا هنا؟ »

- « لا أستطيع أن أجيبك »

وفي خياله قطبت جبينها.. وهزت رأسها الفاتن بالنفي.. فتألق شعرها الأسود

- « لماذا أنا هنا؟ »

يتمهل الصوت الأنثوي قليلاً.. ثم عادت تقول في إشفاق:

- « لقد شرحوا لك المهمة منذ البداية.. وتطوعت للقيام بها.. إن التوسع العظيم هو حلم الجنس الذي تنتمي إليه.. يجب البحث عن كواكب ملائمة للحياة.. هذا معناه أنه في المستقبل سيجد الجنس البشري كواكب مناسبة يستقر عليها.. بعد أن اكتظت الأرض بسكانها.. وهكذا تمتد فروعه إلى المجرّات الأخرى.. أنت عامل الأمان.. ومن المستبعد أن يلمّ مكروه بسفينة الفضاء هذه.. أو بدعامة الحياة.. فأنت ستقوم بكل الاصلاحات »

قال في دهشة

- « بماذا.. بيديّ المجردتين؟ »

- « كلا.. بل بالأدوات التي سأوفرها لك في حالة الطوارىء.. لقد غُرست المعرفة في عقلك الباطن.. وستطلق عند الحاجة لها »

تفجر الغضب في كل أنسجته.. وصرخ مشيراً بيد ترتعد تجاهها:

- « أنت تكذبين.. فقولي الحقيقة ».

- ٣ -

لم تردّ عليه.. فنظر إلى يديه في ضوء سفينة الفضاء الشاحب.. وإلى الأوردة السميكة.. والبقع المبرقشة.. والجلد الذي تجعّد فوق مفاصل الأصابع.. كانت يداه في يوم ما صغيرتين وقويتين ويطيب للإنسان رؤيتها.. فمتى تغيّرتا؟

عاد يتساءل.. وهو يتهالك فوق أحد المقاعد الجلدية بجانب جهاز الكمبيوتر:

- « وماذا يحدث عندما أموت؟ »

لم ينتظر إجابتها.. بل إنتصب واقفاً وقد اضطرب توازنه قليلاً.. وأخذ يسير في قلق صوب الحاجز الخلفي.. وكانت السفينة حوله تعمل بكفايتها المعتادة.

- « يجب أن تستريح.. ليس هناك ما يدعو للخوف.. فالسفينة سليمة وأنت لم يمسك سوء »

كيف يمكنه أن يجادل آلة؟ كان يستطيع الرفض.. ولكن كانت هناك أساليب تجعله يطيع.. وقد حرص صانعو السفينة على أن يحققوا هذا.. عدم الطاعة معناها العقاب..

أخذ يسير كئيباً حزيناً.. مدركاً في قلق قصوراً بدنياً.. فساقاه مثلاً هل كانتا تؤلمانه دائماً.. كما تؤلمانه الآن.. وقد تعود على مر السنوات ضعف بصره حتى أصبح من الطبيعي عليه الآن ألا يستطيع رؤية التقسيمات الدقيقة على اللوحات الألكترونية.. ولكن الألم والتردد الخفيف لقدمه اليسرى جعلاه يتعثر.. غير أنه أنقذ نفسه بالتشبث بظهر المقعد.. أكان هذا عرضاً جديداً.. أم تعرض له من قبل؟

- « عندما تكف عن القيام بعملك.. فإننا نكون قد وصلنا إلى نهاية الطريق.. وعندئذ سأستمر في قيادة سفينة الفضاء.. والبحث عن عالم مناسب يستلم حمولتنا »

أخذ يحملق في الجدران الرمادية.. والسقف الداكن.. والأجهزة الألكترونية المتعددة.. شيء ما يشغل تفكيره.. ويحافظ على الوهم بأنه ذو أهمية لعمل سفينة الفضاء.. وكيف لم يدرك من قبل أنه غير ضروري بالمرة؟. فالسفينة تعمل بتحكم الكمبيوتر.. ومع ذلك فما كان صانعو السفينة ليرسلوه في رحلة إلى أعماق الفضاء إلا لسبب.. وسبب قوي.. بدا له الكلام بلا معنى.. لماذا أدمج في سفينة الفضاء بدون عمل واضح؟.

إن التغير الذي تسببه السرعات القريبة من سرعة الضوء.. لا بد أنه يؤثر في الجسم البشري.. كان قياس التغير هو الشيء البالغ الأهمية لعلماء الأرض.. وكان لا بد من وجود شخص ما لإجراء التجارب عليه.. وهو لا يذكر أنه تطوع للقيام بهذه المهمة.. بل لعله أجبر على القيام بها..

وضحت له الحقيقة فجأة.. تهدمه.. وتحطم خلايا تفكيره وتقتله بتدميرها لكبريائه.. وذاتيته.. صرخ بقمة انفعاله.

- « فأر.. تعنين إنني لست سوى.. فأر تجارب.. مجرد فأر تجارب »

قالت.. ولم يكن هناك أدنى شك في نبرة الأسف.. والحزن:

- « لقد انتهت رحلتك »

عندئذ بدأ الجهاز الألكتروني الدقيق المغروس في رأسه يحوّل جسمه إلى حالة من الجمود الفوري.. وانطلقت الغازات لكي تجفف الدماء في شرايينه.. وانشقت الجدران المعدنية لتظهر الأجهزة التي ستقوم بتشريح جسده.. لبيان أثر التغير عند السرعات القريبة من سرعة الضوء.. ولكن لم يكن ثمة ألم على الإطلاق.. وفي ذلك على الأقل كان صانعو سفينة الفضاء غاية في الرحمة.

الكويت